



رواية أمريكية تتنبأ بالأزمة الاقتصادية الحالية قبل نصف قرن 'Atlas Shrugged': From Fiction to Fact in 52 Years by Stephen Moore

ستيفن مور

كبير المحررين الاقتصاديين في صحيفة وول ستريت جورنال

The Wall Street Journal

صحيفة وول ستريت جورنال

THE WALL STREET JOURNAL

9 يناير 2009

ترجمة: علي الحارس

عندما كنت أعمل قبل سنوات في معهد (كاتو) ذي التوجهات الليبرترارية¹ جرت العادة هناك على نعت كل موظف جديد لم يقرأ رواية (أطلس يستريح «Atlas Shrugged») بأنه (عذراء). فمن المتطلبات العملية للحصول على وظيفة في المعهد أن يكون المتقدم على اطلاع بهذه الرواية الكلاسيكية التي ألفتها الكاتبة آين راند² حول الكارثة الاقتصادية التي يتسبب بها عبث الحكومات الكبيرة. ولو أصبح ذلك الأمر من متطلبات عضوية الكونغرس وإدارة الرئيس اوباما. فإنني على ثقة من الخروج بشكل أسرع من الفوضى المالية الحالية.

إن الكثير ممن عرفوا مؤلفات راند قد لاحظوا أن مع كل أسبوع يمر. ومع كل خطط الإنقاذ والتحفيز الخارجة من واشنطن. يرتكب السياسيون الحاليون الأفعال الجنونية ذاتها التي سخرت منها الرواية عام 1957. حين ظهرت بطبعتها الأولى وصفحاتها الألف. وسجلت نجاحا فوريا. حين ذاك كانت راند من الشخصيات المعروفة. فهي المرأة التي هاجرت إلى

(1) الليبرترارية: منهج سياسي اقتصادي اجتماعي يدعو إلى إزالة كافة المعوقات التي تعترض سبيل الحرية الشاملة على المستويين الشخصي والاقتصادي.

(2) آين راند (Ayn Rand): فيلسوفة وروائية أمريكية (1905-1982): شددت في كتاباتها على فردية الإنسان. وكشفت عن المخاطر التي يواجهها الفرد من الجماعة عندما تتحول إلى كائن طفيلي يعتاش على إنجازات الأفراد دون مقابل.

رواية أمريكية تتنبأ بالأزمة الاقتصادية الحالية قبل نصف قرن

أمريكا من الاتحاد السوفييتي وأحضرت معها رؤى مبهرة حول التوتاليتارية (الشمولية) والآثار المدمرة للاشتراكية. وكان من الطبيعي أن يكرهها اليسار. لكن استطلاعاً للرأي أجرته مكتبة الكونغرس ونادي (كتاب الشهر) للقراءة عام 1991 كشف أن القراء اعتبروا (أطلس) أكثر الكتب تأثيراً في حياتهم بعد الكتاب المقدس مباشرة.

ولمن لا يعرف هذه الرواية، يمكن تلخيص العبرة منها كالآتي: يستجيب السياسيون في العادة للأزمات، والتي يكونون سبب نشوئها في معظم الحالات، من خلال سلسلة جديدة من البرامج الحكومية والقوانين والضوابط. وهذا بدوره يولد المزيد من الدمار والفقر. مما يدفع السياسيين لإنشاء المزيد من البرامج... وهكذا تتكرر الدوامة إلى أن تنهار القطاعات الاقتصادية المنتجة تحت وطأة الثقل الإجمالي للضرائب والأعباء الأخرى المفروضة باسم العدالة والمساواة وفعل الخير. ونرى في الكتاب هؤلاء السياسيين المتحمسين لتوزيع الثروة وبرامجهم يشار إليهم باستهانة على أنهم «الناهبون وقوانينهم».

إن كل فعل عبثي وأخرق جديد تقوم به الحكومة يحمل معه عنواناً تفيض منه عبارات الكرم، فمن (قانون مكافحة الجشع) لإعادة توزيع الدخل، و(قانون تكافؤ الفرص) للحيلولة دون شغل الفرد الواحد أكثر من عمل لإتاحة الفرصة للآخرين كما يدعى، وأفضل شخصياً (قانون مكافحة التكاليف) الذي يهدف إلى الحد من المنافسة الحادة بين الشركات مما يبسط موجة الإفلاس في عالم الأعمال.

إن تلك القوانين والمراسيم تبدو هزلية، ولكنها حقيقية بقدر الإجراءات التي تم اتخاذها في واشنطن عام 2008. وبالفعل، انتهينا الآن من تقديم 700 بليون دولار عبر قانوني (الإرساء الإسعافي للاقتصاد) و(تمويل وإعادة هيكلة صناعة السيارات)، ومع وصول أوباما إلى رأس السلطة، سيوقع بعجلة شديدة قانون (خطة الإنعاش وإعادة الاستثمار)، وبهذه الخطة المدعومة بالصلوات ستزداد الميزانية الفيدرالية بمقدار 1 تريليون، والتي ازدادت بالفعل

رواية أمريكية تتنبأ بالأزمة الاقتصادية الحالية قبل نصف قرن

بمقدار 1.5 تريليون خلال سنوات الرئيس بوش الثمانية. مع الانتباه إلى أن اوباما لم يمض بعد المئة يوم الأولى في الرئاسة.

من يقرأ رواية (أطلس يستريح) يجد تفاصيل الاستراتيجية الاقتصادية الحالية. وهي: كلما تفاقم فشلك في ميدان الأعمال، ازدادت الأيدي التي تمتد لمساعدتك من السياسيين؛ وبهذا يمكن تبرير إنفاق تريليونين من الدولارات تم توزيعها بالفعل كطوق نجاة لعدة كيانات اقتصادية تمر بأزمة كشركات التأمين والمصارف وبيوت الاستثمار في بورصة وول ستريت وشركات صناعة السيارات؛ بينما تقف كيانات اقتصادية أخرى في الطابور تهيؤاً لاستلام حصتها من الغنيمة كشركات التطوير العقاري والبناء وصناعة الفولاذ والمواد الكيميائية والايثانول والخطوط الجوية وحتى شركات تربية الأسماك. ومع كل عون مالي متعاقب بقصد «تهدئة السوق»، يضيع معه تريليون دولار من الثروة الوطنية. بل، وكما ورد في الرواية من قبل، نقوم حالياً بالتعامل مع الفاشلين الذين دمروا شركاتهم باعتبارهم ضحايا، بينما ينظر إلى أرباب الأعمال المدبرين الذين تمكنوا من تحقيق أرباح على أنهم يتلقون «مكاسب استثنائية» غير شرعية.

عندما كانت راند تكتب روايتها في الخمسينات، كانت السكك الحديدية تمثل أحد أعمدة القوة الصناعية الأمريكية الجبارة، فاحتوت الرواية على شخصية امرأة تملك شركة تعمل في هذا المجال، داغني تاغارت، وهي صناعية مبدعة لديها رؤية مشابهة لرؤية شركة (فيديكس)¹ في توسيع الأعمال وتقديم خدمة ممتازة للشحن عبر القطارات؛ ولكنها تتعرض باستمرار إلى طلبات والتماسات وضرائب وقوانين وتنظيمات تحت ذريعة (المصلحة العامة) مما يقودها إلى الإفلاس. هل يبدو ذلك من الخيال؟ في اليوم الذي جلست لأكتب فيه هذا التقرير لرواية (أطلس يستريح)، طلعت علينا صحيفة (وول ستريت جورنال) بعنوان يصرخ قائلاً: «شركات الشحن بالقطارات تطلب من الكونغرس تنظيم أسعار الشحن».

(1) فيديكس (FedEx): شركة أمريكية رائدة في خدمات الشحن.

رواية أمريكية تتنبأ بالأزمة الاقتصادية الحالية قبل نصف قرن

في أحد فصول الرواية يخترع أحد المجازفين معدنا جديدا أقوى من الفولاذ وأخف منه. فتقوم الحكومة على الفور بالاستيلاء على الاختراع «لصالح الجميع». ويطالب السياسيون المخترع بأن يحضر إلى واشنطن من أجل التوقيع على وثيقة يتخلى بموجبها عن اختراعه تحت التهديد بخسارته كليا. وهذا المشهد يتشابه بشكل مخيف مع ما حدث العام الماضي عندما جمع وزير المالية السابق هنري بولسون ستة من رؤساء البنوك وأخبرهم أنهم لن يغادروا الغرفة إلا بعد أن يوقعوا وثيقة يسلموا فيها جزءا من أرباحهم المستقبلية إلى الحكومة. مع التأكيد لهم أن هذا التسليم ليس إلا من أجل «المصلحة العامة».

يمكن القول بالإجمال أن رواية (أطلس يستريح) ما هي إلا احتفال بالإنسان المجازف الذي يقبل بالمخاطرة ويحصد ثروته من خلال ذكائه البشري. ويرفض بعض النقاد هذه الرواية ويصموننها بالبساطة. كما أن بعض السياسيين المعجبين بآراء راند يرون أنها تفتقر إلى التسامح. لكن تحذيرا ذا علاقة بما نشهده اليوم يصدق في أرجاء الرواية: عندما تُهان المكاسب والثروة والإبداع في المجتمع فإنها تبدأ بالزوال ويسود الفقر.

من اللحظات التي لا تنسى في الرواية مشهد قبل النهاية بقليل عندما ينهار الاقتصاد بسبب تصرفات العقول الاقتصادية العظيمة في العاصمة واشنطن! ولا يكون هنالك من حل أمام السياسيين غير الاستعانة برجل الأعمال وبطل الرواية جون غالت. وهو الذي قاوم من قبل هجومهم على الرأسمالية. فيتوسلون به لمساعدتهم على إعادة الاقتصاد إلى سابق عهده. ويدور نقاش يبدو وكأنه يجري في يومنا هذا:

غالت: أتريد مني أن أكون ديكتاتورا اقتصاديا؟

السيد ثومبسون: نعم!

- وستطيع كل أمر أصدره؟

- دون أي تحفظ!

- فلنبدأ إذن بإلغاء كافة ضرائب الدخل.

رواية أمريكية تتنبأ بالأزمة الاقتصادية الحالية قبل نصف قرن

- أوه. لا. صرخ السيد ثومبسون ونهض واقفا. وأضاف: لا نستطيع فعل ذلك... إذ

كيف سندفع رواتب موظفي الحكومة؟

- اطرد موظفي الحكومة هؤلاء.

- أوه. لا.

إن إلغاء ضريبة الدخل سيكون حقا خطة تحفيز اقتصادي حقيقية، ولكن السيد اوباما والديمقراطيين في واشنطن يريدون فعل العكس: زيادة ضريبة الدخل «لأهداف عادلة» بحسب تعبير اوباما.

يقول ديفيد كيلبي رئيس (جمعية أطلس) المخصصة للتعريف بأفكار آين راند: «كلما كبر الكتاب في السن، أصبحت رسالته أكثر ملاءمة». كما أخبرني بوجود خطط لتحويل الكتاب إلى فيلم سينمائي ضخيم. فهو الرواية الكلاسيكية المعاصرة الوحيدة التي لم تدخل باب الفن السابع. ويعلق كيلبي قائلاً: «لا نحتاج إلى إنتاج فيلم من هذا الكتاب، فنحن نعيش أحداثه على أرض الواقع حالياً».